السنوسية دين ودولة

تأليف : الدكتور محمد فؤاد شكرى

للاستاذ محمد محمود زيتون

«درج الكتاب من الإفرنج على اعتبار السنوسية إحدى الطرائق الصوفية فحسب ، وانبرى الطليان من سنوات مضت يعملون لتعزيز هذا الاعتقاد بكل الوسائل ، يحدوهم إلى ذلك الأمل فى صرف أذهان سواد الناس عن التفكير فى أصول السنوسية الحقة والتسليم بأنه ما دامت السنوسية طريقة من الطرق الصوفية فهى بعيدة كل البعد عن العناية بغير شؤون الدين ، بل ولا يحق لها أن تعمل لمطالب الحياة والدنيا ، ووجه الخطر فى هذا الاعتقاد — إذا رسخ فى الأذهان — ظاهر واضح ، ذلك بأنه يحرم السنوسية — كنتيجة منطقية فى النهاية — من التطلع إلى الحكم وتشييد صرح الدولة الإسلامية المتينة ، تلك الدولة التى جاهد الليبيون سنوات طويلة من أجل إرساء قواعدها فى ليبيا ، ومع ذلك فقد فات الطليان ومن حذا حذوهم أن الاسلام لا يعرف تفرقة بين شؤون الدين والدنيا ، ولا يفصل بين العقيدة والدولة . وما كانت السنوسية فى أدوار تاريخها الحافل (طريقة) تقصر اهتمامها على شؤون العبادة من غير نظر فى أحوال الشعوب التى أخذ (الإخوان) السنوسيون على عاتقهم إرشادها حتى تتحرر من قيود الجهالة وتنعم بهدى المعرفة »

بهذه الفقرة يفتتح المؤلف تصديره لكتابه الذى نقدمه للقراء فى هذه الفترة التى تلفت الأنظـــار إلى المملكة الليبية الناهضة كثمرة الدعوة السنوسية فى هذا القطر الشقيق

وتقديم هذا الكتاب إنما هو تعريف بتاريخ النضال الذى اضطلع به هذا الشعب المسلم المجاهد الذى طرح عن كاهله نير العبودية فى قوة وجلد ، فما أوهنت عزائمه تقلبات العثمانيين ، ولا فتت من أعضاده مدافع الطليان ودسائس الألمان ومخازى الفرنسيين والإنجليز

وثمة ميزة أخرى لتقديم هذا السفر للقارئين فى هذا الوقت: ألا وهى التنويه بحلقة من سلسلة الجهاد فى ســـبيل « الجامعة الإسلامية » التى شغلت ولا تزال تشغل قادة الفكر الاسلامى فى العصر الحديث ، وانطوت صحائف ، وما يزال هؤلاء القادة فى مكان الصدارة من التاريخ المجيد ، فضلا عن اعتزاز بلادهم بمآثرهم الاسلامية التى لا تنسى

أما ليبيا التى نعتز اليوم بنهضتها فإنها خضبت تراب بلادها بدماء الشهداء لا من أهلها فحسب ؛ بل من المتطوعين من شتى الأقطار الاسلامية ، كما أن كثيراً من المصريين بصفة خاصة كان لهم سهم وافر فى هذا الجهاد الصادق ، وما يزال الليبيون على ذكر من الأعمال التى قام بها عبد الرحمن عزام ، وصالح حرب ، وعزيز المصرى ، وعبـــد المنصف محمود ، والمرحوم محمود لبيب ، الذين خاضوا غمار المعارك الدموية ، مؤمنين باليقظة الإسلامية ، والوحدة العربية ، والحرية والاستقلال ، تحت ظلال السيوف ، كما أن الأمير عمر طوسون — عليه رحمة الله — كان جم النشاط فى جمع المال اللازم لحركة الجيران المناضلين عن دينهم وشرف الوطن

والدعوة السنوسية امتداد مستقيم للدعوة المحمـــدية التى جوهرها تنوير الأذهان وتحرير الأوطان ، وقد اقتضت الظروف التى حاقت بالدول الإسلامية فى القرن الماضى يقظة فكرية شاملة ، ترسم أصحابها خطى النبى المصلح ، فلما صدق العزم ، تبين الرشد من الغى ، واتضحت السبل والأســـاليب ، ذلك بأن الاسلام مصحف ومنبر ، سيف وكتاب ، عبادة وقيادة ، عقيدة وشريعة ، رهبانية وإرهاب ، وبالجملة دين ودولة ، لهذا كانت السنوسية طريقة ودعوة وغزوة ، وما زالت تمضى فى سبيلها المرسوم من نظام اجتماعى إلى جمهورية فإمارة ثم ملكية

ولد زعيم السنوســـية الأول السيد محمد بن على السنوسى بالجزائر فى سنة ١٧٨٧ ونشأ فى بيئة علم وفضل ، وتنقل فى الأقطار الاسلامية مقتبسا من مناهل العلماء مناقشا وفاحصا ، وقد صقل التصوف من عنفوان شبابه ولكنه لم يحد من نزعته

الصادقة إلى « إحياء الملة الإسلامية وتوحيد الصفوف في العالم الإسلامي للنهوض بالدين الحنيف نهضة صحيحة قوية » وأخذ يتزود من العلم ويمنحه للطالبين في يسر ومضاء حتى ذاع صيته وأوجست منه خيفة شتى العناصر الجامدة في فاس والقاهرة وصار « خطراً على الأمن العام » وألصقت به التهمة المأثورة « محاولة قلب نظام الحكم » فأصابه أذى كبير من الولاة والمشايخ، وبانتقال الداعية الإسلامي الكبير إلى برقة بدأ « الإخوان » ينشئون الزوايا كنقط ارتكاز الدعوة السنوسية، وكانت «البيضاء» أم الزوايا بمثابة المركز العام لهذا النشاط الذي دوخ الاستعمار

على أن السنوسية لم تكن دعوة لتطهير الدين من البدع والخرافات فحسب، بل تعدت هذا النطاق إلى تحرير الرقيق من أهل (واداى) فكان سلطانها محمد شريف يشترى هؤلاء الأرقاء ويعلمهم في الزوايا ثم يعتقهم ويبعث بهم إلى أهليهم لينشروا الإسلام في الزنوج والوثنيين.

وليبيا الواقعة حينذاك في نطاق الخلافة العثمانية لم تنس حقيقة هذا الدين الذي فتمسكت بأهدابه، وعندئذ رأى العثمانيون في السنوسية عاملا من عوامل الدعاية لهم، فاستعانوا بالسنوسي الكبير على بث روح الألفة بين الناس، ونشر السلام بين ربوع البلاد، وسار ولاتهم في ركابه كلما انتقل في البلاد إلا أنهم مالبثوا أن قلبوا له ظهر المجن عندما بدأت السلطات العثمانية « تخشى من سلطان السيد في الجهات التي أنشئت فيها الزوايا وكثر بها الاخوان والأتباع والمريدون » وعملوا على زعزعة مكانته في نظر المسلمين حتى ناهضته العناصر الرجعية بالأزهر، فلم يغنها ذلك من الشيء قدما

ولما توفي السنوسي الكبير سنة ١٨٥٩ انتقلت الإمارة إلى ولده المهدى الذي أخذ على عاتقه إتمام ما بدأه أبوه فزاد عدد الزوايا وتوغل في الصحراء الكبرى، وأوجد بها مراكز لتعليم الرماية، فاتهمته فرنسا وتركيا وإيطاليا بتعطيل مصالح الاستعمار والتعصب ضد المسيحية واغتيال المكتشفين للصحارى. وتوفى المهدى في أول يونيو سنة ١٩٠٢ وخلفه الشاب السيد أحمد الشريف حفيد السنوسي الكبير فواصل الجهاد ضد الفرنسيين وصمد لهم على الرغم من تخلى العثمانيين عنه حتى أسلم القيادة إلى ابن أخيه الراشد إدريس

وفي سبتمبر سنة ١٩١١ قطعت إيطاليا علاقتها بتركيا، فأغار الطليان على برقة وطرابلس. فبدأت السنوسية صفحة مربضة من نضالها الشعبي الذي دام ثلاثين عاماً، وتحققت الجامعة الاسلامية بصفة عملية في تدفق المؤن والذخائر والمال والرجال على ليبيا من مصر والسودان والعراق والشام وتركيا، وقام صالح حرب بدور جرىء إذ انقلب على الانجليز ودافع عن مقدسات الشعب الليبي، كما أبلى البطل الشهيد عمر المختار أحسن البلاء حتى وقع أسيرا في أيدى الطليان الذين حاكموه صوريا وأعدموه رمياً بالرصاص

وما إن اندلعت شرارة الحرب العالمية الثانية حتى تقدم الجيش (الانجلوسنوسي) لطرد الألمان والطليان من ليبيا وتأمين الجناح الأيسر لمصر، وقد سجل الأمير إدريس السنوسي في هذه الخطوة لنفسه ولبلاده شرف المجاهد والسياسي العامل على تحقيق استقلال بلاده

وإذ وضعت الحرب أوزارها دأب السنوسي على ضم الصفوف فبويع بالإمارة على الأقطار الليبية: برقة وطرابلس وفزان، حتى نودى به ملكا على مملكة مستقلة لم يكف عزام عن سرد قضيتها على الرأى العام والسعى في انضمامها إلى هيئة الأمم المتحدة وبالتالى إلى جاراتها أعضاء جامعة الدول العربية

هذه هي قصة السنوسية كما عرضها الدكتور محمد فؤاد شكرى في كتابه القيم « السنوسية دين ودولة » الذي بذل فيه جهوداً جبارة في سبيل التحقيق العلمي، فجاء عمله مثلا طيبا للمنهج التاريخي الذي وضع دعائمه الأولى ابن خلدون. فقد تجنب السرد المضل. وعمد إلى التحليل والاستقراء، وليس أدل على ذلك من فصل « الإمارة السنوسية » الذي خصصه لتفصيل دعائم هذه الدعوة وهي أصول دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية

ومما يجدر بنا الإشارة إليه — كآخر أصل سياسي للامارة السنوسية — « تلك الوصية التي تركها السيد رحمه الله بإسناد رئاسة الطريقة السنوسية إلى الأكبر الأرشد من الأسرة

السنوسية . ثم نظام البيعة » وما نعلم مطلقاً أن للبيعة فى الاسلام كتلك المراسيم التى نتكرها على الطرقيين ، فهل من الاسلام أن البيعة تستتبع تقليد المبايع سيفاً ومنحه كتاباً وإلباسه جرداً ، وإعطاءه مسبحة ، وإقامة صلاة ومصافحة » فكانت هذه الصلاة وهذه المصافحة بمثابة المبايعة له بالإمارة من بعده ؟ وأجمع الإخوان و كبار السنوسية وشيوخها على قبول هذه الإمارة فى حياة والده ثم بعد وفاته ، وعلى ذلك فكأنما جمعت السنوسية فى نظام الحكم بين مبدإ الوراثة والصلبية والعمل بمبدإ الشورى وحققت فى هذا النظام بعض شروط الإمارة » . وينزع المؤلف إلى منطق التبرير الذى نراه يباعد بينه وبين منطقه المنهجى إذ يقول « ومن المعروف أن الشورى كانت ركناً من أركانها ، والواقع أنه لم يكن هناك مناص من هذه (البيعة) الاسلامية باعتبارها أصلا من الأصول التى قام عليها (بيت) شريف ينتهى فى نسبه القرشي إلى الرسول الكريم » ... كذا ..

هذا ولا نفكر على المؤلف هذه الطاقة العلمية التى جعلته — فى سبيل التحقيق والتحليل — يعتمد على أوثق المصادر ، ولا سيما الإيطالية بعد أن ترجمها له أصدقاؤه من الليبيين أنفسهم فذللوا أمامه كل عسير ، ثم هو يعتمد على رواية المعاصرين ممن أسهموا فى النهضة الليبية بأوفر سهم ، وصدق الشاعر « فما راء كمن سمعا » — والكتاب من منشورات دار الفكر العربى ، تلك الدار التى لا تفتأ تزود المكتبة العربية بالمؤلفات القيمة ، وترمى دواماً إلى هدف رفيع ، وغاية نبيلة ، خدمة للقضايا العربية والإسلامية متخيرة لذلك العقول الكبيرة والأقلام الرفيعة ، فصدر الكتاب فى ٤٢٤ صفحة من القطع الكبير والطبع الأنيق وثمنه خمسون قرشا

وإنه ليحق لكل دارس قوى أن يفخر باقتناء هذا السفر ، وإلى مثل هذا الجهاد التأليفى ندعو الباحثين فى قومياتنا ونهضاتنا آملين الظفر — فى آخر الأمر — بمؤلفات عريقة ، ودراسات دقيقة كهذا الكتاب

محمد محمود زيتونه

توجيهات نبوية

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

للسيدة وداد سكاكينى

كانت هذه التوجيهات آخر ماتنشر الأستاذ الجليل عبد المتعال الصعيدى من علماء الأزهر المجددين وقد ضمنها أربعين حديثاً محدثا صحيحة السند موثوقة المتن والنقل ، اختارها المؤلف ملائمة لروح العصر وتوجيه أهله فى الدين والعلم والاجتماع. ولعلنا أحوج ما نكون فى هذه الأيام إلى هذا التوجيه المحمدى الذى دعا إليه الرسول أو قام به ليكون قدوة تحتذى وسنة تتبع ، ففى كل عصر من العصور غمرة فساد وموجة طغيان ينهض لصد شرها ودرء عواقبها أهل الصلاح والإصلاح ممن آتاهم الله علما وفضلا

وهل كان شئ أجدى على الإنسانية الحيرى وأهدى فى ردها إلى سواء السبيل من أحاديث الرسول وتوجيهاته التى كان يبصر بها الناس ويقيهم الانحراف والعثار ، وقد جعلها لهم دستورا رافدا لتعاليم القرآن ومنيرا للأمم فى حياتها الاجتماعية

ولقد قسم المؤلف هذه الأحاديث الأربعين إلى فصول صغار شرح فيها الكلمات شرحاً لغويا وإعرابيا ، ثم بسط الغاية منها بسطا وافيا ، فكأنه يلقيها من على منبره فى كلية الأزهر التى أسندت إليه تدريس الحديث فى جملة عمله الجامعى

والأستاذ الصعيدى ذو دأب وتجديد فى التأليف بالأدب والدين ، لا لطلابه فحسب ، بل لجمهور المثقفين بمصر وبلاد العرب ، فهو إذا عرض دراساته الأدبية لم نجد كفايته وإتقانه مقصورين على هذه الدراسة ، إذ نراهما يتناولان جذور البحوث الدينية فتجئ مشبعة بالتحليل والاستقراء

فى كتابه توجيهات نبوية أو محمدية يبالغ المدى فى فهم الحديث على الوجه الذى فهمه الصحابة فيه ، ويقرر خلال الدرس والبحث نواحى المقارنة والمطابقة دون استطراد يحرف بالقارئ أو تفصيل يضيق به كما اتفق لكثير من الشروح الدينية فى زماننا.